الإحالة بالضمائر ومناسبتها للسياق في سورة ق

د. سعد ناصر العجمى (*)

ملخص:

لقد اهتم علماءُ النحو والنصّ كثيرا بفكرة الإحالة باعتبارها أمرًا مُساعدًا على الترابُط النصِّي، وأولوا الإحالة بالضمائر عنايَةً خاصةً؛ لِما تقدمه الضمائر من قدرة فائقة على تماسُك أجزاء النص، وربط عناصرِه ومفرداته، وإضفاء طابع دلاليٍّ خاصّ أثناء التعبير بالضمائر.

وفي هذا البحث أسلِّط الضوء على الإحالة بالضمائر في سورة (ق) ليس بحثًا عن التماسُك والترابط النصي، ولكن بحثًا عن الدور الوظيفي الذي تقوم به الضمائر في الآيات ومدى مُناسبة تلك الضمائر لسياق الآيات والمعنى العام للسورة، مُستفيدًا من مُعطيات علم النصِّ الذي أولى الإحالة عنايةً خاصَّةً باعتبارها عنصرا من عناصر التماسُك النصِّي.

وقد وقع الاختيار على سورة (ق) بالتحديد لِما لهذه السورة من أهمية كُبرى في السنة النبوية، ولِما تحتويه من معانٍ متصلة بالرسالة والبعث واليوم الآخر.

وتعود أهمية هذا البحث إلى أنه محاولة جادة للكشف عن سرِّ الاختيار بين الضمائر في عددٍ من السياقات المُختلفة، وما لهذا الاختيار من أسرار دلالية ونصية يُمكن أن تُثريَ المعنَى وتُثري البحث العلمي.

* - حاصل على الدكتوراة من دار العلوم – القاهرة.

مقدمة:

الحمدُ لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، والصلوات والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وبعد، فإنَّ هذا البحثَ يختصُّ بالحديث عن التعبير بالضمائر المُختلفة في سورة (ق) وما لهذا التعبير من دلالاتٍ يُمكن أن تُستشَفَّ من السياق، ومدى مُناسبة الضمائر المُستخدمة للسياق التي وردت فيه. ولماذا تتم الإحالة بضمائر مُعيَّنة في سياق ويتم الاستغناء عنها في سياقٍ آخر.

والبحثُ بهذه الطريقة جديدٌ في طريقة التناوُل والمُعالجَة؛ حيث لا يهتمُّ ببيان عناصر الإحالة بالضمائر المُختلفة ويدرسها من وجهة نحوية بحتة كما دأبَ على ذلك بعضُ الباحثين في دراستهم للضمير القرآني، ولا يتطرَّق كذلك إلى دور هذه الإحالة في تحقيق التماسُك والترابُط النصِّي في السورة كما دأب على ذلك كثيرٌ من الباحثين حينَ يتعرضُّون لدراسة الإحالة النصية والتطبيق من خلالها على نصٍ قرآني فإنهم يُركزون ويُفتِّشون في التماسُك النصِّي وعناصر السبك والتحام أجزاء النصّ من خلال الإحالة بالضمائر المُختلفة.

وليس معنى ذلك أنني أقلِّلُ من شأن هذه الأبحاث أو شأن مُتناوليها، فإنهم بذلوا مجهودا طيبًا مشكورا، وقد استفدتُ مما كتبوا ووصلوا إليه على المستوى النحوي، واستفدت كذلك من مُعطيات علم النصّ في الكشف عن مفهوم الإحالة ودورها في تحقيق التماسُك النصِّي.

وأهدُف من خلال هذه الدراسة إلى معرفة مدى تحقُّق المُناسبة المعنوية في استخدام الضمائر في سورة (ق) مع السياق العام والخاص للسورة من خلال الكشف عن طرُق الإحالة المُختلفة من المولى عز وجلَّ إلى نفسِه وإلى المشركين وإلى رسولِ الله- صلى الله عليه وسلَّم، وإلى الجنة والنار وما يتعلَّق بهما.

وتمثَّلت إشكاليةُ البحثِ في نُدرة الكلام في كُتب التفاسير ومعاني القرآن حول الضمائر وما يتصل بها من معانٍ وظيفية مُتصلة بالسياق. إلا أنِّي وجدتُ شيئا يسيرًا أستعينُ به بعد الله عند الزمخشري والرازي والبقاعي وابن عاشور وغيرِهم. والله الموفِّق والهادي إلى سواء السبيل.

الدراسات السابقة:

- الإحالة في القرآن الكريم – دراسة نحوية نصية، د/ تامر عبد الحميد أنيس، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م. والكتاب في الأصل رسالة دكتوراه للباحث، دار العلوم – القاهرة.

وهي دراسة نصية موسَّعة لمفهوم الإحالة وأنواعها وتجليَّاتها في القرآن الكريم، وقد بذل الباحثُ فيها مجهودًا كبيرًا في بيان معنى الإحالة وعرضِ صُوَرها المُختلفة ثم التطبيق على القرآن الكريم.

- عود الضمير وأثره في توجيه المعنى في القرآن الكريم– دراسة نَحْوية، رسالة ماجستير، الباحث/ عبد الله راجحي مُحَمَّد غانم، كليـة التربيـة، جامعة عدن، اليمن. ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

وهي دراسة نحوية خالصة كما يبدو من العنوان ومن فصول الرسالة، حيثُ جاءت الفصول مُوزَّعةً على القضايا النحوية المُتعلقة بعود الضمير على مُتقدم أو مُتأخِّر أو سابق أو قريب، من خلال التطبيق على النصوص القرآنية.

- عود الضمير وأثرُه في التفسير، دراسة لضمير الغائب المُعتمد على الهاء في حزب المفصل، د/ عبد الحكيم بن عبد الله بن عبد الرحمن القاسم، رسالة دكتوراه، كلية التربية، جامعة الملك سعود، السعودية. ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

ويتضح من العنوان أنَّ الدراسة اختُصت بالتفسير وبيان المعنى، واختُصَّتْ بالنظر في ضمير الغائب المُعتمد على الهاء(فلا وجود للضمير المُستتر ولا لضمائر الغائب المُعبَّر عنها بغير الهاء، مثل واو الجاعة وألف الاثنين ونون النسوة ...إلخ) في حزب المفصل الذي يبدأ بسورة(ق) وحتى نهاية المُصحف.

- عود الضمير وأثرُه في تفسير آيات الآحكام– عرضا ودراسة، رسالة دكتوراه في العلوم الإسلامية، الباحث/ جمال بوكو، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر(١)، الجزائر، ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م.

ويتضح من العنوان أنَّ الدراسة مُختصة بآيات الأحكام وأثر عود الضمير في تفسيرِها واستنباط الأحكام منها.

ومن الدراسات الوثيقة الصلة بالموضوع بحث بعنوان: الصور الإحالية في سورة (ق) وأثرها في توجيه المعنى، د/ حسين عودة هاشم، مجلة ميسان للدراسات الأكاديمية، المجلد السابع، العدد الثالث عشر، ٢٠٠٨م.

فهذا البحث يتناوَل صور الإحالة في سورة (ق) بشكل عام، فيتطرَّق إلى الإحالة بالضمائر وبأسماء الإشارة وبالاسم الموصول، وأركِّزُ في هذا البحث على الإحالة بالضمائر فقط، مما يجعل البحث أكثرَ عمقًا وأوسع مجالا في رصد الضمائر وتفصيلِها، فقد تناوَل الباحثُ الإحالة بالضمائر في أقل من ثلاث صفحات ، وخلا من رصد ضمائر الخطاب، أمَّا بحثِي فإنني عمِلتُ على تقسيم الضمائر إلى مجموعات مُختلفة وتناولتُها بالبحث والتحليل قدر المُستطاع، فوقعت في أكثر من خمس عشرة صفحة.

والأمر الثاني أنَّ طريقة البحث اختلفت عندي فهو يبدأ من الضمائر المُتشابهة ويجمعها تحت عنوان واحد بحثًا عن الترابط النصِّي، أمَّا أنا فقد فصَّلتُ الضمائر بحسب المُتكلِّم، كأن يكون المُتكلِّمُ هو المولى عز وجلَّ ويُحيل إلى نفسه أو الكفار أو الجنة والنار أو إلى رسول الله– ﷺ، بحثًا عن مُناسبة الضمائر للسياقات الواردة فيها.

والفرق أنني أحاول بهذه المنهجية الوقوف على المعنى في سياقِه ومُناسبة الضمائر المُستخدمة للمعنى السياقي وللمعنى العام للسورة. وهذا ما خلا منه بحثُ د/ حسين عوده. وبحثُه على هذا جيدٌ وفيه فوائد ولطائف يُمكن الاستفادةُ منها والزيادةُ عليها.

وهناك دراسات أخرى تطبيقية على سُور من القرآن الكريم، ومُعظمُها يختصُّ ببحث التماسُك النصِّي من خلال الإحالة بالضمائر، مثل:

- الإحالة بالضمائر في سورة الإنسان.
- الإحالة بالضمائر في سورة الصافات.

- الإحالة بالضمائر في سورة الملك.
- الإحالة بالضمائر في سورة الحاقة.

وغيرُها مما يختصُّ ببحث التماسُك النصِّي في سورة أو جزءٍ من أجزاء القرآن.

مدخل:

إنَّ الإحالة عند كثير من علماء النصِّ هي إعادةُ الذكر لشخصٍ أو شيء أو جملة أو مجموعة من الجُمل أو نصٍّ أو مجموعة من النصوص[١].

وحول مفهوم الإحالة وما ترمي عليه من معانٍ في علم اللغة الحديث انتهى د/ تامر عبد الحميد إلى أنَّمُصطلح الإحالةَفي علم اللغة الحديث يرتبط بعدَّةُ مفاهيم، من أهمِّها:

١) المفهوم التداوُلي وهو إرجاعُ المُتكلِّمِ المُخاطَبَ صراحةً أو ضِمنًا إلى نصٍّ أو شخصٍ أو شيءٍ أو حدَثٍ أو واقعٍ مُركَّب لأجل استيثاقِه أو تمام الفائدةِ، أو التذكير أو بيان الاتساق.
٢) الإحالة بمعنى إعادة الذكر.
٣) الإحالة بمعنى العهد: ومعناه شمول مُصطلح الإحالة لأنواع العهد المُختلة، سواء العهد الذهني أو الذكري، الخارجي والداخلي، وسواء كانت الإحالة بالضمائر أو غيرِها من أنواع المُحيلات الأخرى، وسواءٌ كانت الإحالة سابقة على المُحيل أو تاليةً له أو إحالة إلى غير مذكور، وسواءٌ كانت الإحالةُ إلى شخص أو نصٍّ أو جملة أو مجموعة جمل أو أي بيتٍ شعريٍّ أو قصيدة...إلخ[٢].

وقد ركَّزتُ في هذا البحث على الإحالة بالضمائر خاصَّة دون أسماء الإشارة والأسماء الموصولة والمُعرَّف بأل وبالإضافة. حتى أستطيع أن أستوعِب أطراف الإحالة بالضمير في سورة(ق) وأثرها الدلالي ومُناسبتها للسياق.

وترتبط فكرة الإحالة بالضمائر من مُصطلح جرى استخدامِه لدى عددٍ من الباحثين وهو عودُ الضمير أو مرجعية الضمير، والعودُ: هو الرجوع، وَفِي الْمَثَلِ: الْعَوْدُ أَحْمَدُ. (الْمُعَاوَدَةُ) الرُّجُوعُ إِلَى الْأَمْرِ الْأَوَّل[٣]. وعودُ الضمير معناه: ارتباط الضمير بعائدٍ يعود إليه.

قال الكفوي:«وَلَا بُد للضمير من مرجع يعود إِلَيْهِ وَيكون ملفوظا بِهِ سَابِقًا مطابقا نَحْو: {وَعصى آدم ربه}، أَو متضمنًا لَهُ نَحْو: {اعدلوا هُوَ أقرب} أَو دَالا عَلَيْهِ بالالتزام نَحْو:{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ} أَو مُتَأَخِّرًا لفظا لَا رُتْبَة مطابقا نَحْو:{وَلَا يسْأَل عَن ذنوبهم الْمجرمون}، أَو رُتْبَة أَيْضا، وَذَلِكَ فِي بَاب ضمير الشَّأْن والقصة وَنعم وَبئسَ والتنازع

أَو مُتَأَخِّرًا دَالا بالالتزام نَحْو: {حَتَّى تَوَارَتْ بالحجاب}...إلخ»[٤].

والضمير كما يذكُر السُّهيلي: «سُمِّيتْ تلك اللفظةُ اسمًا مُضمرًا، لأنها عبارة عن الاسم الذي أُضمرَ استغناءً عن لفظه الظاهر»[٥].بمعنى أنَّ الضمير هو الاسمُ الجامدُ الذي يعودُ إلى ظاهرٍ قبلَه تقديرا أو لفظًا، وهو ما كُنّي به عن الظاهرِ اختصارًا[٦].

وذكر الشريف الجرجاني أنَّ المُضمرَهو ما وُضِعَ لمُتكلِّمٍ أو مُخاطَبٍ أو غَائبٍ تقدَّم ذكرُه لفظًا، أو معنى أو حُكمًا، وهو عبارة عن اسمٍ يتضمَّنُ الإشارةَ إلى المُتكلِّم أو المُخاطَبِ أو غيرِهما بعدما سبق ذكره إما تحقيقا أو تقديرا[٧].

وقد عدَّ النحاةُ الضمائر من المعارِف إلا أنها مُبهمةٌ لكونها تقع على كلِّ شيءٍ من حيوان وجمادٍ وغيرِ ذلك، ولا تختصُّ بقسم دون غيرِه، ولعدم وضوحِها ونُقصان دلالتها وحاجتها إلى مُفسّرٍ يُوضّحُها[٨].

وتعودُ أهمية الإحالة بالضمير إلى أمورٍ عديدة من أهمها الإيجاز وطلب الخفة، كما ذكر ابنُ جني أنّ الضمائرَ يُؤتى بهِ طلبًا للخفَّةِ وزاولِ الشَّكِّ بِمكانها[٩].وذكر السيوطي أنَّ أَصْلُ وَضْعِ الضَّمِيرِ لِلِاخْتِصَارِ وَلِهَذَا قَامَ قَوْلُهُ: {أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} مَقَامَ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ كَلِمَةً لَوْ أَتَى بِهَا مُظْهَرَةً[١٠].

والاختصارُ فنٌّ من فنون البلاغة، ويحتاج المُستمع والقارئُ لإدراكه إلى فهم سليم وتتبُّع سديد، ومنه عائدُ الضمير، وإلا وقع لبسٌ في تحقيق المعاني وفهمِها[١١].

والضمائرُ تكتسبُ أهميتَها بصفتها نائبةً عن الأسماء والأفعال والعبارات والجُمَل المُتتالية؛ فقد يحلُّ الضميرُ محلَّ كلمةٍ أو عبارةٍ أو جملة أو عدّة جُمل، ولا تقفُ أهميتُها عند هذا الحد، بل تتعدَّاه إلى كونها تربط بين أجزاء النصّ المُختلفة، شكلا ودلالةً، داخليًّا وخارجيًّا[١٢].

وهذه الوظيفة لإحالة الضمير ليست شكلية فقط، بل دلالية كذلك، لأنَّ الدلالة في كثير من الأحيان تبقى غامضةً، وكذلك تبقى الجُمل مُتناثرةً لا رابط يربطها، وبالطبع هذه الجُمل تحمل دلالات مُتناثرةً إلى أن تظهر الضمائرُ لتُمثِّل ذلك الجسر الذي يُوصل بين هذه المُتناثرات ويربط بينها[١٣].

وقد أشار فان دايك إلى أهمية السياق وعلاقته بإنشاء الجمَل والنصوص، وألمح إلى مجموعة من التعبيرات الإشارية، ويقصِد بها التعبيرات التي تُحيل إلى مكونات السياق الاتصالي، وهي المُتكلم والسامع وزمن المنطوق ومكانُه...إلخ. وهذا يعني أنَّ التعبيرات غيرُ مُستقلة عن السياق ولنا دائما مُحيلاتٌ أخرى، والتعبيرات الإشارية فهي: أنا وأنتَ، وهُنا وهناك، وكذلك اليوم والأمس وغدًا وضمائر الإشارة...إلخ[١٤].

الإحالة بالضمائر في سورة (ق):

اتفق المفسرون على أنَّ عدد آيات سورة (ق) خمسٌ وأربعون آية ولم يُخالف في ذلك أحدٌ منهم[١٥]. وذهب جمهور المفسرين إلى أنَّ آياتِها كلها مكية[١٦]، ونقل القرطبي عن ابن عباس وقتادة أنَّ آياتها كلها مكية باستثناء الآية رقم(٣٨) فمدنية[١٧] وتبعهما الزمخشريُّ في ذلك[١٨].

ومقصودها تصديقُ النبيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في الرسالة التي معظمها الإنذار وأعظمه الإعلام بيوم الخروج بالدلالة على ذلك بعد الآيات المسموعة الغنية بإعجازها عن تأييد بالآيات المرئية الدالة قطعا على الإحاطة بجميع صفات الكمال[١٩]. وذكر ابنُ عاشور أنَّ من أهم أغراضِهاالاستدلالَ على إثبات البعث وأنه ليس بأعظم من ابتداء خلق السماوات وما فيها وخلق الأرض وما عليها، ونشأة النبات والثمار من ماء السماء وأن ذلكَ مثَلٌ للإحياء بعد الموت[٢٠].

لماذا سورة (ق)؟

١) لما لهذه السورة من أهمية خاصة في السنة النبوية؛ حيثُ سن رسولُ الله– ﷺ– قراءتها في الصلوَات الجامعة مثل يوم الجمعة ويومَي العيد[٢١].فعن عُمَرَ بنِ الخَطَّاب أنه سَأَلَ أبا واقد

الليثيّ ما كانَ يقرأُ بِهِ رسولُالله– صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم– في الأَضْحَى والفِطْر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ(ق والقرآن المجيد) واقتربت الساعة وانشق القمر[٢٢]. وحث رسولُ الله كذلك على قراءتها في غير الصلاة، فقد روي أنه قال: «من قرأ سورة ق هوّن الله عليه تاراتِ الموتِ وسَكَرَاتِه»[٢٣]. وكذلك كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر أن يقرأ بها في خطبة يوم الجمعة[٢٤].

٢) فِي هَذِهِ السُّورَةِ تَقْرِيرِ الْأَصْلِ الْآخِرِ وَهُوَ الْحَشْرُ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: "أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُرابًا ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيد؛ ولذا قَالَ فِي آخِرِهَا: "يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ"[٢٥]. وفي مضمونها من معنى القدرة والقهر المحتاج إليه في إقامة أمر العامة ما فيه كفاية[٢٦].

وعناصر الإحالة بالضمير في سورة (ق) عديدة ومُختلفة، ولكن سأتناول بالبحث هنا ثلاثة عناصر أساسية في السورة، وهي كالتالي:

١) المُتكلم هو المولى عز وجل ويحيل إلى نفسه
٢) المتكلم هو المولى عز وجل ويُحيل إلى الكفار
٣) المتكلم هو المولى عز وجل ويُحيل إلى الجنة والنار وما يتعلَّق بهما
٤) المتكلم هو المولى عز وجل ويُحيل إلى رسول الله – ﷺ.

المبحث الأول : المتكلم هو المولى عز وجل ويُحيل إلى نفسه

أحال المولى عز وجل إلى نفسه بالضمائر في سورة(ق) في أكثر من خمسةَ عشر موضِعًا، أكثرُها بضمير الجمع(نحن – نا) المُشعر بالعظمة، وبعضُها بضمائر الإفراد (ياء المتكلم – ت الفاعل). وكان لاستخدام الضمير في كلِّ سياقٍ مُناسبةٌ تخصُّه. ويُمكن تأمُّل ذلك من خلال تقسيم الآيات التي ورد بها إحالة المولى عز وجل إلى نفسه إلى أربع مجموعات كالتالي:

المجموعة الأولى: سياق الامتنان بذكر النعم وتعديد آيات الله الدالة على عظمته:-

وقد ورد ذلك في آياتٍ عديدةٍ؛ حيثُ يذكُر الله عز وجلَّ النعم التي أنعم بها على عبادِه، والتي كانت تقتضي شُكرًا لله عز وجلَّ وإذعانًا وإيمانا بما قضَى من أمر الرسالة والبعثِ. فكان

ضميرُ المُتكلّم المُشعرُ بالعظمة هو الأنسبَ في مثل هذه الآيات التي بلغ عددُها سِتَّ آياتٍ، وقد استُخدِم فيها الضمير(نا) تسع مرات.

الآيات:

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧)

وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩)

رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ(١١)

أثناء الحديث عن الجنة: لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)

وليست الميزة في استخدام الضمير وحدَها بل بما اتصل به الضمير، فقد اتصل الضمير(نا) بكل ما يُشعر بعظيم إنعام الله على خلقِه وتفضُّله عليهم بما يُوجب الشكر، فالسماء والأرض شاهدةٌ على هذا الإنعام، وهذه أفعال الله فيهما (بنيناها – زيناها– مددناها – ألقينا – أنبتنا – نزلنا – أنبتنا – أحيينا) والتي تدلُّ على كمال الإنعام على العباد من خلال الآيات الباهرات. يقول البقاعي: «فالذي أوقع ذلك على هذا الإحكام الذي يشاهدونه بما فيه من المنافع والستر الذي لا يختل على مر الجديدين، فهو من القدرة بحيث لا يعجزه شيء»[٢٧].

وتدلُّ نونُ العظمةِ مع هذه الأفعال على التفخيم والتعظيم، كما تدلُّ كذلك على أنَّ الله وحدَه هو المنفرد بهذه الأفعال لا شريك له، فبناءُ السماءِ وتزيينُها مختصٌّ به وحدَه، ومدُّ الأرضِ وتثبيتُها بالرواسي وإنزال الماء من السماء وإحياءُ الأرض بعد موتها....إلخ كلُّها أفعال لا يستطيع أحدٌ أن يُشاركَ الله فيها، وكلُّها أفعالٌ تدلُّ على عظمة الخالقِ سبحانَه[٢٨].

وقوله تعالى(لدينا مزيد) في سياق الحديث عن أهل الجنة والإنعام عليهم بقوله (لهم ما يشاءون فيها): مما يدلُّ على كمال الإنعام على المؤمنين في الجنة وعظيم الامتنان عليهم والشكر لهم على سعيهم وصبرهم. ولذلك يربطُ البقاعي في هذه الآية بين استخدام نون العظمة وبين سياق الامتنان على المؤمنين [٢٩].

المجموعة الثانية: سياق بيان كمال القدرة على البعث بعد الموت:

وهذا يظهر في آيات ثلاثة:

قوله تعالى: قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤)

وقوله: أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨)

فجاءت نونُ العظمة مُلابسةً للأفعال الدالة على سعة علمه وكمال قدرته خمس مرات(علمنا– وعندنا – أفعيينا– خلقنا –ما مسنا).

ولو وردتْ هذه الآيات بنسيجٍ آخرَ لاختلفَ المُراد، فضلًا عن تناسُب النسيج مع جوّ السورة العام الذي يدورُ حول إثباتِ عظمة الخالق وبيانِ قدرتِه، وإبطال مزاعم الكفار حول البعث والإحياء، هذا فضلا عمَّا يُشكّلُه توالي(نا) الدالةِ على العظمة من تناسُبٍ لفظيّ ووحدةٍ نظميةٍ تعملُ على جعل النصّ وحدةً واحدةً لا يُمكن فصل بعضه عن بعض. فعودُ الضميرِ(نا) في هذه المجموعة والمجموعة السابقة عليها والتي تليها إلى مُحالٍ إليه واحدٍ، وهو المولى عز وجلّ، يجعل الآيات كلَّها وكأنَّها آيةٌ واحدةٌ ونصٌّ واحدٌ، وهذا يدلُّ على عظمة الخالق وتفرُّدِه بألوان الإنعام والقدرة التي لا تُعدُّ ولا تُحصى[٣٠].

قوله تعالى: قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ

فالعلمُ هنا يحتاج إلى قدرة دالةٍ على كمال الإحاطة بما ليس في طاقة بشر، وتبدأ الآية بحرف التحقيق{قد}: أي بل نحن على ذلك في غاية القدرة لأنَّا قد{علمنا} بما لنا من العظمة {ما تنقص الأرض منهم} أي من أجزائهم المتحلّلةِ من أبدانهم بعد الموت وقبله[٣١].

البقاعي: ولما كانت العادة جارية عند جميع الناس بأن ما كتب حفظ، أجرى الأمر على ما جرت به عوائدهم فقال مشيرًا بنون العظمة إلى غناه عن الكتاب: {وعندنا} أي على ما لنا من الجلال الغني عن كل شيء {كتاب} أي جامع لكل شيء {حفيظ} أي بالغ في الحفظ لا يشذ عنه شيء من الأشياء دق أو جل، فكيف يستبعدون على عظمتنا أن لا نقدر على تمييز ترابهم

من تراب الأرض ولم يختلط في علمنا شيء من جزء منه بشيء من جزء آخر فضلًا عن أن يختلط شيء منه بشيء آخر من تراب الأرض أو غيرها[٣٢].

قوله تعالى: (أفعيينا بالخلق الأول)

فقد استخدم المولى عز وجلَّ نونَ العظمة في هذا السياق في قوله(أفعيينا)؛ ليُضفي على الاستفهام الإنكاري كمال القدرة على الخلق، وتمامَ نفيِ الإعياء واستنكارِه. والمعنى– كما يقول الزمخشري:«أنا لم نعجز –كما علموا– عن الخلق الأول، حتى نعجز عن الثاني»[٣٣]. ولله درُّ البقاعي الذي يربط استخدام نون العظمة هنا بالسياق الدالِّ على كمال القدرة على البعث بعد الخلق الأول؛ فكأنَّ المعنى عنده: هل حصل لنا –على ما لنا من العظمة– الإعياءُ، وهو العجز بسبب الخلق في شيء من إيجاده وإعدامه {الأول}[٣٤].

قوله تعالى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ(٣٨)

فالمعنى: أنَّه تعالى جلَّتْ قُدرتُه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وهذا أمرٌ في غاية الإعجاز، ودلالتُه على عظمة الخالق أوضح ما تكون. وناسب أن يكون مع فعل الخلق نونُ العظمة(خلقنا)، وكذلك نفي الإعياء واللغوب عن العظيم سبحانه، بل نفي القليل منه وهو المسّ، (وما مسَّنا).

المجموعة الثالثة: **سياق التهديد والإنذار الشديد**:

وقد بلغت الآيات التي يُحيل فيها المولى عز وجل إلى نفسه في سياق التهديد والوعيد الشديد للكفار– سبعَ آيات:

- وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ(١٦)
- لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)
- يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠)

- وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ(٣٦)
إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)

وقد أحال المولى سبحانَه إلى نفسه خلال هذه الآيات اثنتَي عشرة مرة، في المواضع: (خلقنا – نعلم – نحن – كشفنا – نقول – أهلكنا– إنا – نحن – نحيي – نميت – إلينا – نحن).
وجاءت الإحالة في المواضع كلِّها بنون العظمة المُناسبة لسياق التهديد والدالة على الهيمنة والقدرة على الإحاطة الكاملة بمكنونات النفوس وبواطنها، فضلا عن ظواهرها. والقدرة على البعث والإحياء بعد الموت وجمع الناس قاطبة للحساب يوم القيامة.

فقوله: قد {خلقنا} بما لنا من العظمة {الإنسان} وهو أعجب خلقًا وأجمع من جميع ما مضى ذكره.{ونحن} بما لنا من العظمة {أقرب إليه} قرب علم وشهود {من حبل الوريد}[٣٥].

واستخدام نون العظمة في هذا السياق مُناسبٌ لمقام التهديد وَبَيَانُهُ كما يقول الرازي:«أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا قَالَ: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ كَانَ ذَلِكَ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ وَيَعْلَمُ ذَوَاتَ صُدُورِهِمْ.وَقَوْلُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ. بَيَانٌ لِكَمَالِ عِلْمِهِ»[٣٦]. مما يستدعي من الإنسان الحذر الشديد من الوقوع فيما يُغضب المولى عز وجلَّ، فليس هناك شيءٌ يخفَى عليه سبحانَه مهما دقَّ، حتى وساوسُ النفوس وبواطنُها مما قد لا يطلع عليها أحدٌ من الإنس والجنِّ والملائكة. لكنَّ الله تعالى جلَّت قدرتُه يُحيط بها ويعلمها، فما بالكم بما هو أظهر.

وفي قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣)

يُشير البقاعي إلى التخصيص المُستفاد من استخدام الضمائر في هذه الآية في سياق الكلام عن الإحياء والإماتة، فهذا أمرٌ لا يُشركه فيه أحد من خلقِه، ولا يعلمُ سرَّه إلا الله عز وجلَّ، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء: ٨٥

{إنا} أي بما لنا من العظمة {نحن} خاصة {نحيي ونميت} تجدد ذلك شيئًا بعد شيء سنة مستقرة وعادة مستمرة كما تشاهدونه، فقد كان منَّا بالإحياء الأول البدء {وإلينا} خاصًّا بالإماتة ثم الإحياء {المصير}[٣٧].

ويُشير الرازي إلى معنى التهديد المُفهوم من قوله تعالى: (وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ)فهذى معنى ظَاهِرٌ فِي التَّهْدِيدِ بِالْعِلْمِ بِعَمَلِكُمْ لِأَنَّ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَرْجِعَهُ إِلَى الْمَلِكِ وَلَكِنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْمَلِكَ لَا يَعْلَمُ مَا يَفْعَلُهُ لَا يَمْتَنِعُ مِنَ الْقَبَائِحِ، أَمَّا إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ يَعْلَمُهُ وَعِنْدَهُ غَيْبُهُ وَإِلَيْهِ عَوْدُهُ يَمْتَنِعُ فَقَالَ تعالى: وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ وَهُوَ ظَاهِرٌ فِي التَّهْدِيدِ[٣٨].

ويؤكد الزمخشريّ أنَّ التهديد في هذه الآيات لعموم الكفار والغرضُ منه تسليةُ رسول الله- ﷺ، ويتضح سياق التهديد أكثر في قوله تعالى: (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ) حيث ذكر الزمخشري وغيرُه أنَّ هذا تهديد لهم وتسليةٌ لرسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم[٣٩].

ولما أقام سبحانه الأدلة على تمام قدرته وشمول علمه وختم بسهولته عليه واختصاصه به، وصل تسلية للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتهديدهم على تكذيبهم بالعلم الذي هو أعظم التهديد فقال: {نحن} أي لا غيرنا ولا هم أنفسهم {أعلم} أي من كل من يتوهم فيه العلم {بما يقولون} أي في الحال والاستقبال من التكذيب بالبعث وغيره مع إقرارهم بقدرتنا[٤٠].

المجموعة الرابعة: مقام القضاء والفصل بين العباد:

في هذا السياق لا يحتاج المولى عز وجلَّ أن يُحيل إلى نفسه بنون العظمة كما فعل في الآيات الآخرى؛ لأنَّ المقام هنا مَقام فصلٍ بين العباد وإحصاءٌ لأعمالهم، فليس هناك حاجةٌ إلى التعبير بنون العظمة كما كان الحال قبل، ولذلك كان الاستغناء عن نون العظمة أولى في هذا السياق.

وقد أحال المولى عز وجلَّ إلى نفسه بالتاء وبياء المتكلم وبالضمير(أنا) في أربعة مواضع فقط في السورة كلها من خلال هاتين الآيتين:

قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩)

المواضع (لدي – قدمتُ – لديّ – أنا): وقد جاءت هذه المواضع مُخالفةً لعموم السورة في طريقة الإحالة؛ حيث قامت الأدلة والبراهين الشاهدة على عظمة الخالق سبحانه، وأقرَّ الإنسُ والجانُّ بوحدانية الله. وهذا يظهر في قول القرين (ربنا ما أطغيتُه)، وفيه اعتراف بالله ربًّا. والمقام هُنا مقام فصل بين العباد، والذي يفصلُ بينهم هو المولى عز وجل. سبحانه، فليست هناك حاجةٌ إلى استخدام نون العظمة.

المبحث الثاني: المتكلم هو المولى عز وجل ويُحيل إلى كفار قريش

أحال المولى عز وجلّ إلى كفَّار قُريش في سبع آيات، من خلال ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى:

وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦)

المجموعة الثانية:

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)

المجموعة الثالثة:

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦)

وكانت الإحالة فيها كلِّها بضمير الغائب(هم – و) ومن هذه المواضع: (عجبوا – منهم – جاءهم – قبلهم – هم). وكان في الإمكان أن تكون الإحالةُ بضمير المُخاطَب(عجبتم – منكم – جاءكم – قبلكم – أنتم). ولكنْ عدلت السورةُ عن ذلك إلى ضمير الغائب في كلِّ المواضع،

وصرَّح الله بذكرِهم دون مُخاطبتهم في موضع واحد في الآية الثانية في قوله(الكافرون)، والسرُّ في ذلك راجعٌ إلى أمرين:

الأول: أنّ الخطابَ في هذه السورةِ موجَّهٌ إلى رسولِ الله– صلى الله عليه وسلَّم– خاصَّة، ثم إلى المؤمنين من بعدِه عامَّةً. بدليل أنَّه صرَّح بذلك في بعض المواضع من السورة مثل قوله تعالى في ختام السورة:﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾، فهذا ومثلُه كما ذكر الزمخشري فيه تهديد للمشركين وتسلية لرسولِ الله– ﷺ[٤١]. وكما ظهر الخطاب في الآيات: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) ﴾.

فلم يكُ مُناسبًا وهو يخاطِب رسولَ الله– صلى الله عليه وسلَّم بهذه السورة خطابا أوَّليًّا أن يلتفتَ عنه إلى خطاب المُشركين مُباشرة. بل أحال إليهم بضمير الغائب ليكونَ الخطابُ لصفيِّه وخليلِه خاصَّةً في هذه السورة.

الثاني: أنَّهم تلبَّسوا بِما يُحقِّر من شأنهم من أوصاف الكفر والتكذيب بالرسالة والبعث بعد الموت، فلم يكُ مُناسبًا أن يَتوجَّه المولى سبحانه إليهم بالخطاب المُباشرِ، بل يُحيل إليهم بضمير الغائب على مرِّ السورة كلِّها؛ وذلك تحقيرًا لما اعتقدوه من مذاهب الكفر والضلال، ولعدم إذعانهم لدعوة الحق والإيمان. فهُم بذلك مُعرضون عن منهج الله ورسلِه، فناسبَ أن يُحيل الله عز وجل إليهم بضمائر الغائب إشارة إلى الإعراض عنهم ودليلا على تسفيه مُعتقداتهم.

وهنا مسألة ينبغي الإشارةُ إليها، وهي أنه كيف بدأ السورة بالإحالة إلى غير مذكور في قوله تعالى: (عجبوا – منهم)، ثم أظهره بعد ذلك في قوله (الكافرون)؟

يرى الزمخشريُّ أنَّ الإضمار هنا مَفهوم من سياق الآيات ومن الحروف المُقطَّعة أنَّه يُحيل إلى كفار قريش، ولكنَّه وضع (الكافرون) موضعَ الضميرِ للشهادة على أنهم في قولهم هذا مقدمون على الكفر العظيم[٤٢].

بينما يرى البقاعيُّ أنه أضمر قبل الذكر في (عجبوا)و(منهم): أي الكفار، وأضمرهم قبل الذكر إشارة إلى أنه إذا ذكر شيئًا خارجًا عن سنن الاستقامة انصرف إليهم[٤٣]. بمعنى أنَّ ما ذهب إليه كُفارُ قريشٍ من سوء الاعتقاد خارجٌ عن سُنن الاستقامة. فناسبَ أن يكون الأسلوب فيه ما هو خارجٌ عن سُنن الكلام المُعتادة، وهذا وقع في الإضمار قبل الذكر؛ حيث جرت عادة الناس في كلامِهم أن يُذكر الاسم الصريح ثم يُحيلون عليه في كلامهم، أما هنا فقد جرى العكس تماما.

أمَّا ابنُ عاشور فقد ذكر أنَّضمير {عجبوا} وإن كان عائدًا إلى غير مذكور، فمُعَادُه معلومٌ من السياق، على أنه سيأتي ما يُفسِّرُ الضمير بقوله {فَقَالَ الْكَافِرُونَ}[٤٤].

وعبر عنهم بالاسم الظاهر في {فَقَالَ الْكَافِرُونَ} دون: فقالوا، لتوسيمهم فأن هذه المقالة من آثار الكفر، وليكون فيه تفسير للضميرين السابقين[٤٥].

وفائدة الإضمار في قوله(منهم)، كما ذكر البقاعي: وعجب منهم هذا العجب بقوله: {منهم} لأن العادةَ عندهم وعند جميعِ الناس أنه إذا كان النَّذيرُ مِنهم لَمْ يُداخِلْهم في إنذارِهِ شكٌّ بِوَجْهٍ من الوُجُوهِ، وهؤلاء خالفوا عادة الناس في تعجبُّهِمْ من كون النذير – وهو أحدهم– خص بالرسالة دونهم، ولم يدركوا وجه الخصوصية لكونه مثلهم، فكذلك أنكروا رسالته وفضل كتابه بألسنتهم نفاسةً وحسدًا؛ لأنهم كانوا معترفين بخصائصه التي رفعَهُ الله تعالى عليهم بها قبل الرسالة فحطَّهم عجبُهم ذلك إلى الحضيض من دَرَكَاتِ السَّفَهِ وخِفَّة الأَحْلَام، لأنهم عجبوا أن كان الرُّسول بَشَرًا، وأوجبوا أن يكون الإلهُ حَجَرًا[٤٦].

وإعادةُ الضمير في قوله (منهم) بعد قوله(جاءهم) لابدَّ وأن يكونَ له دلالةٌ خاصَّةٌ بالسياق؛ لأنَّه كان في الإمكان الاستغناءُ عن ذكر الضمير الثاني، فقوله(منهم) فيه معنى الجنس توكيدًا على أنَّ المُنذرَ ليس من غيرِهم. بل هو واحدٌ منهم يعرفون نسبَه وصدقَه وأمانتَه؛ ومن ثَمَّ كانَ إعراضُهم عن دعوته ضربٌ من السَّفَهِ والطيشِ والاستعجال وعدم التبصُّر؛ ومن ثَمَّ يرتدُّ عليهم عجبُهم، فالعجبُ منهم ومن سفاهة أحلامِهم.

وهنا مسألة خلافية رصدها الرازي أثناء تحليل قوله تعالى: (بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ)فذكر أنَّ الجَائِي يُمكن أن يكون المقصود به (المكَذَّبُ)، وهو الحقُّويكون التقدير على ذلك: كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ، أَيْ لَمْ يُؤَخِّرُوهُ إِلَى الْفِكْرِ وَالتَّدَبُّرِ.

ويُمكن أن يكونَ الجائي هاهنا هُوَ الْجَائِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ)ويكون التقدير على ذلك: كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمُ الْمُنْذِرُ. ثم استبعد الأوَّل ورجَّح الثاني[٤٧]. وإذا صحَّ ترجيح الرازي هنا يكون الضمير قد عاد إلى أوَّل المذكورين (المُنذر – الحقّ) فالحق أقربُ والمُنذر أوَّلُ. وهذا من اللطائف البلاغية التي تستدعي الانتباه.

المبحث الثالث:المتكلم هو المولى عز وجل ويُحيل إلى الجنةوالنار وما يتعلَّق بهما الحديث عن النار وما يتعلَّق بها

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ.

الحديث عن الجنة وما يتعلق بها:

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ (٣٥)

ويُمكن تحليل عناصر الإحالة في الآيات من خلال العناصر الآتية:

أولا: قوله تعالى: أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ– وقوله: فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ. فمن يكون المُخاطَب المُحال إليه بألف المُثنَّى في قوله (ألقيَا – وفألقياه)؟

ذكر الزمخشريُّ وغيرُه في هذه المسألة خِلافا يُمكن اختصاره في الآتي:

١) أنَّ الخطاب من الله تعالى للملكين السابقين: السائق والشهيد.

٢) ويجوز أن يكون خطابا للواحد على تقدير: ألق ألق. للتأكيد.

٣) ويجوز أن يكون خطابا للواحد على طريقة العرب في تنزيلهم الاثنين منزلة الواحد في الشعر، كما قالوا: خليليّ وصاحبيّ، وقفا وأسعدا.

٤) ويجوز أن تكون الألف في أَلْقِيا بدلا من نون التوكيد الخفيفة، وهذا موافقٌ لقراءة الحسن: ألقينْ، بالنون الخفيفة[٤٨].

والرأي الأول هو ما تميل إليه النفس وهو الأنسبُ للسياق من غيرِه، فيكون الأمر للسائق والشهيد معًا بإلقائِه في العذاب الشديد، وهذا أوقع في الزجر والتهديد من غيرِه؛ حيثُ يكونُ المُلقي له اثنين معًا لا واحدًا إمعانًا في العقوبة والتنكيل.

وهو مُناسبٌ كذلك لسياق الكلام؛ حيثُ وردَ ذكر السائق والشهيد قبل، في قوله تعالى: (وجاءت كلُّ نفسٍ معها سائقٌ وشهيد). فالأولى أن تكون الإحالةُ عائدةً إليهما مادام الكلام مُحتملا لهما.

ثانيا: لو أجرينا مُقارنة بين خطاب الله تعالى لأهل الجنة ولأهل النار في الآيات السابقة، يتبيَّن أنَّ الله عز وجلَّ عندما أحال إلى أهل النار لم يستخدم ضمير الخطاب معهم إلا مرتين في قوله(لا تختصموا – إليكم) والخطاب مُناسبٌ هنا لأنَّ الكافرَ وقرينَه في سياق الاختصام، وقد خاطبهم الله عز وجلَّ بما يكون زاجرًا لهم وداحضًا لخصومَتهما في حضرة ملك الملوك، أمَّا في غير ذلك فكانت الإحالة إلى أهل النار بضمير الغائب، وأحال إليهم بما يشينهم من الأوصاف، مثل: (كفَّار – عنيد – مناع للخير – معتد – مريب).

وحينما ذكر الذنب العظيم (الذي جعل مع الله إلها آخر) جعله بالاسم الموصول (الذي) وهو أقرب إلى الاختصاص منه إلى العموم، وهذا لخصوصية العقوبة بهذا الذنب فاختُصَّ العذاب الشديد بالإجرام الشديد. وحينما تحدَّث عن أهل الجنة أحالَ إليهم بالأوصاف الحميدة التي ترفع من قدرهم مثل(المتقين – أواب – حفيظ – خشي الرحمن – جاء بقلب منيب)،

واستخدم الاسم الموصول(مَنْ) وهو أقربُ إلى إفادة العموم مع خَشِيَةِ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ؛ لأنَّ هذا هو الأصل الذي كان ينبغي أن يكون. وهذا هو المرجو من عموم الإنسان.

وأحال الله عز وجلَّ إلى أهل الجنة بالخطابالمُباشر مرتين في قوله(هذا ما تُوعدون) وفي قوله(ادخلوها بسلام). وكان في الإمكان أن تكون الإحالة بالغائب(يوعدون – فليدخلوها)، ولكنَّ السياق يقتضي التكريم والتشريف، فناسب أن يكون الخطابُ من الله لهم بالترحيب والتسليم؛ تشريفا لهم وتكريما على سعيهم.

ثم عدل عن خطابهم بعد ذلك إلى ضمير الغيبة في قوله(لهم ما يشاءون فيها). فإذا كان هناك تشريفٌ في الخطاب المُباشر فما السرُّ في هذا العدول؟

أجاب الرازي عن هذا السؤال من وجوه:

الْأَوَّلُ: هُوَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ادْخُلُوها مُقَدَّرٌ فِيهِ يُقَالُ لَهُمْ، أَيْ يُقَالُ لَهُمْ ادْخُلُوها فَلَا يَكُونُ عَلَى هَذَا الْتِفَاتًا.

الثَّانِي: هُوَ أَنَّهُ مِنْ بَابِ الِالْتِفَاتِ وَالْحِكْمَةِ الْجَمْعُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، كَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: أَكْرَمَهُمْ بِهِ فِي حُضُورِهِمْ، فَفِي حُضُورِهِمُ الْحُبُورُ، وَفِي غَيْبَتِهِمُ الْحُورُ وَالْقُصُورُ.

وَالثَّالِثُ: هُوَ أَنْ يُقَالَ قَوْلُهُ تَعَالَى: لَهُمْ جَازَ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا مَعَ الْمَلَائِكَةِ، يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ: تَوَكَّلُوا بِخِدْمَتِهِمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا، فَأَحْضِرُوا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَا يَشَاءُونَ، وَأَمَّا أَنَا فَعِنْدِي مَا لَا يَخْطُرُ بِبَالِهِمْ، وَلَا تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ عَلَيْهِ[٤٩].

المبحث الرابع:

المتكلم هو المولى عز وجل ويُحيل إلى رسول الله– ﷺ

أحال الله تعالى إلى رسوله وخليلِه محمدٍ– عليه الصلاة والسلام– بالخطاب المُباشر في أربع آيات، ثلاثةٍ منها متتاليات، وواحدةٌ منفردةٌ خُتِمتْ بها السورة.

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ(٤١)

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)

ووردتِ الإحالة بالخطاب المُباشر ستَّ مرَّاتٍ في المواضع(فاصبِر – سبّح – سبّحْه– استمع – أنتَ – فذكّر)

ولَمَّا كان المقام هنا الغرضُ منه التوجيه والوصايا الإلهية بالصبر والذكر والتسبيح والتذكير بالقرآن – ناسب أن تكون الإحالة بضمير المُخاطب المناسِب في سياق التوجيه.

يقول الرازي:«وَأَمَّا مُنَاسَبَةُ هَذَا الْوَجْهِ لِلْكَلَامِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، فَهِيَ أَنَّ تَكْذِيبَهُمُ الرَّسُولَ وَتَعَجُّبَهُمْ مِنْ قَوْلِهِ أَوِ اسْتِهْزَاءَهُمْ كَانَ يُوجِبُ فِي الْعَادَةِ أَنْ يَشْتَغِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَعْنِهِمْ وَسَبِّهِمْ وَالدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاجْعَلْ كَلَامَكَ بَدَلَ الدُّعَاءِ عَلَيْهِمُ التَّسْبِيحَ لِلَّهِ وَالْحَمْدَ لَهُ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ أَوْ كَنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيْثُ قَالَ: رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً [نُوحٍ: ٢٦] بَلِ ادْعُ إلى ربك فإذا ضجرت عن ذَلِكَ بِسَبَبِ إِصْرَارِهِمْ فَاشْتَغَلَ بِذِكْرِ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ»[٥٠].

وفي قوله(استَمِع) وقع في سياق التسلية لقلب رسول الله بإعلامِه بشيء مما ينتظرُهم في الآخرة من العذاب والأهوال– حتى يكون ذلك عونا له على الصبر على أذاهم في الدنيا.

يقول الزمخشري:«وَاسْتَمِعْ: يعنى واستمع لما أخبرك به من حال يوم القيامة. وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به والمحدّث عنه»[٥١].

الخاتمة والنتائج:

- تُعدُّ الإحالة بالضمير هدفًا من الأهداف العامة اللغة؛ حيثُ تميل إلى الإيجاز والخفَّة كلَّما كان الكلام مفهومًا مع أمن اللبس.
- كان للسياق دور كبير في الاختيار بين الضمائر الإحالية في سورة (ق)؛ ويتبيَّن ذلك في إحالة المولى عز وجلَّ إلى نفسه بنون العظمة في السياقات التي تدور حول إثبات نعم الله العباد بما يقتضي شكر هذه النعم، وفي سياق إثبات قدرة الله على الخلق

والبعث، وفي سياق تهديد الكفار والمُشركين وإنذارِهم بما ينتظرهم من أهوال القيامة والبعث والحشر والحساب.

- كان للإحالة في سورة (ق) إسهامٌ في تقريب المعنى إلى ذهن المتلقي وتشكيل الوحدة الموضوعية للسورة؛ حيثُ ارتبطت أجزاء الإحالة إلى الكفار بضمير الغائب من أوَّل السورة إلى آخرها مما جعل السورة وكأنها آيةٌ واحدةٌ مُتلاصقة الأجزاء ومتشابكة الأركان.
- الإحالة بضمير المخاطب في سورة(ق) مع كفار قريش اقتصر على موضع واحد في السورة كلِّها، وكان في موضع الزجر والتعنيف بالقول، وذلك في قوله تعالى: " لا تختصموا لدي"، وهذا يحتاج إلى بحثٍ مُستفيض عن سياق التعبير بضمائر الغيبة والخطاب في القرآن الكريم للوقوف على دقة التعبير القرآني.
- الدرسات التطبيقية حول الإحالة في القرآن الكريم رغم كثرتها فإنها تحتاج إلى مزيدٍ من العناية والاهتمام بحال المُتكلم ومعرفة المقاصد العامة للسورة، وربط ذلك بأنواع الإحالة المُختلفة للوقوف على دقة التعبير القرآني أثناء التعبير بالضمائر.

الهوامش:

[١]يُنظر في مفهوم الإحالة: النص والخطاب والإجراء، ص ٣٠٣- ٣٢٠، والإحالة في القرآن الكريم، د/ تامر عبد الحميد ص ١١١.

[٢]يُنظر: الإحالة في القرآن الكريم، الباب الأول: حول الإحالة وإشكال المفهوم ص ٣٩ – ٣٢٧

[٣]الصحاح(٢/ ٥١٣، ٥١٤)

[٤]الكليات، ص ٥٦٩

[٥]نتائج الفكر، السهيلي، ص ١٧٠

[٦]عود الضمير وأثره في تفسير آيات الأحكام ص ٧٧

[٧]التعريفات للجرجاني، ص ٢٧٩

[٨]شرح المفصل لابن يعيش (٥/ ٨٦، ٨٧)

[٩] الخصائص (٢/١٩٥).

[١٠]الإتقان (٢/ ٣٣٤)

[١١]عود الضمير وأثره في التفسير، ص ٤

[١٢]علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، (١/ ١٣٧)

[١٣]علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق(١/ ١٦٤)

[١٤]علم النص، مدخل مُتداخل الاختصاصات ١٣٦

[١٥]يُنظر: الكشاف (٤/ ٣٧٩)، وتفسير الرازي(٢٨/ ١١٩)، والإتقان(١/ ٢٣٣)، قال ابن عاشور: وَقَدْ أَجْمَعَ الْعَادُّونَ عَلَى عَدِّ آيِهَا خَمْسًا وَأَرْبَعِينَ. التحرير(٢٦/ ٢٧٤)

[١٦]يُنظر: تفسير الرازي (٢٨/ ١١٩)، وتفسير القرطبي(١٧/ ١)، والتحرير والتنوير (٢٦/ ٢٧٤)

[١٧]يُنظر: تفسير القرطبي(١٧/ ١)

[١٨]الكشاف (٤/ ٣٧٩)

[١٩]نظم الدرر (١٨/ ٣٩٦)

[٢٠]التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٢٨)

[٢١]يُنظر: صحيح مسلم الأحاديث رقم: (٤٥٧، ٤٥٨، ٨٧٢، ٨٧٣) (١/ ٣٣٦، ٢/ ٥٩٥)، يقول الرازي في بيان أهمية هذه السورة: وَأَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ تُقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْعِيدِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِيهَا ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ [ق: ٤٢] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: كَذلِكَ الْخُرُوجُ [ق: ١١] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ [ق: ٤٤] فَإِنَّ الْعِيدَ يَوْمُ الزِّينَةِ، فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يَنْسَى الْإِنْسَانُ خُرُوجَهُ إِلَى عَرْصَاتِ الْحِسَابِ. تفسير الرازي (٢٨/ ١١٩)

[٢٢]صحيح مسلم، حديث رقم ٨٩١، (٢/ ٦٠٧)

[٢٣]تفسير الزمخشري (٤/ ٣٩٤)

[٢٤]صحيح مسلم(٢/ ٥٩٥)، ونظم الدرر(١٨/ ٣٩٩).
[٢٥]تفسير الرازي(٢٨/ ١١٩)
[٢٦]نظم الدرر (١٨/ ٣٩٩)
[٢٧]نظم الدرر (١٨/ ٤٠٨)
[٢٨]صور الإحالة في سورة ق، ص ٤
[٢٩]نظم الدرر (١٨/ ٤٣٤)
[٣٠]صورة الإحالة في سورة ق، ص ٤
[٣١]نظم الدرر (١٨/ ٤٠٥)
[٣٢]نظم الدرر(١٨/ ٤٠٦)
[٣٣]الكشاف (٤/ ٣٨٢)
[٣٤]نظم الدرر (١٨/ ٤١٨)
[٣٥]نظم الدرر (١٨/ ٤٢٠)
[٣٦]تفسير الرازي (٢٨/ ١٣٤)
[٣٧]نظم الدرر (١٨/ ٤٤١)
[٣٨]تفسير الرازي(٢٨/ ١٥٧)
[٣٩]الكشاف (٤/ ٣٩٣)، وتفسير الرازي(٢٨/ ١٥٧)
[٤٠]نظم الدرر (١٨/ ٤٤٢)
[٤١]يُنظر: الكشاف (٤/ ٣٩٣)
[٤٢]الكشاف (٤/٣٨٠)
[٤٣]نظم الدرر(١٨/ ٤٠٣)
[٤٤]التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٣١)
[٤٥]التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٣٢)
[٤٦]نظم الدرر (١٨/ ٤٠٤)
[٤٧]تفسير الرازي (٢٨/ ١٢٦)
[٤٨]الكشاف (٤/ ٣٨٧)وتفسير الرازي (٢٨/ ١٣٦)
[٤٩]تفسير الرازي (٢٨/ ١٤٩)
[٥٠]تفسير الرازي(٢٨/ ١٥٣)
[٥١]الكشاف(٤/ ٣٩٣)

المصادر والمراجع

١. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
٢. الإحالة في القرآن الكريم – دراسة نحوية نصية، د/ تامر عبد الحميد أنيس، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م. والكتاب في الأصل رسالة دكتوراه للباحث، دار العلوم – القاهرة.
٣. الصور الإحالية في سورة (ق) وأثرها في توجيه المعنى، د/ حسين عودة هاشم، بحث منشور في مجلة ميسان للدراسات الأكاديمية، المجلد السابع، العدد الثالث عشر، ٢٠٠٨م.
٤. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
٥. التعريفات، الشريف الجرجاني، تحقيق : إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
٦. الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.
٧. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة.
٨. شرح المفصل، يعيش بن علي بن يعيش، تقديم وتحقيق: الدكتور/ إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م
٩. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.
١٠. صحيح مسلم،مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي.

١١. علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، د/ صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ، ٢٠٠٠م.
١٢. علم النص، مدخل مُتداخل الاختصاصات، فان دايك، ترجمة: د/ سعيد بحيري، دار القاهرة للكتاب، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
١٣. عود الضمير وأثرُه في تفسير آيات الآحكام– عرضا ودراسة، رسالة دكتوراه في العلوم الإسلامية، الباحث/ جمال بوكو، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر(١)، الجزائر، ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م.
١٤. عود الضمير وأثرُه في التفسير، دراسة لضمير الغائب المُعتمد على الهاء في حزب المفصل، د/ عبد الحكيم بن عبد الله بن عبد الرحمن القاسم، رسالة دكتوراه، كلية التربية، جامعة الملك سعود، السعودية. ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
١٥. عود الضمير وأثره في توجيه المعنى في القرآن الكريم– دراسة نَحْوية، رسالة ماجستير، الباحث/ عبد الله راجحي مُحَمَّد غانم، كليـة التربيـة، جامعة عـدن، اليمن. ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.
١٦. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ، ١٩٩٥م.
١٧. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش – مُحَمَّد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٨. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، مُحَمَّد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.
١٩. نتائج الفكر في النَّحو للسُّهَيلي، أبو القاسم السهيلي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٢، ١٩٩٢م.

٢٠. نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، د/ أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

٢١. النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة: د/ تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٢٢. نظم الدرر في تناسُب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥م.